# مَفْهُومُ (إِلّا ما قَدْ سَلَفَ) فِي القُرآنِ المجيد

الشيخ الدكتور منصور مندور
من علماء الازهر الشريف
عضو الهيئة الاستشارية للمجلة

## فحوى البحث

وردت عبارة (الا ما قد سلف) في القرآن المجيد وبالمفهوم نفسه في اربع مواضع:

- الآية الشريفة (٢٥٧) من سورة البقرة.
- الآية الشريفة (٢٢) و (٢٣) من سورة النساء.
- الآية الشريفة (٩٥) من سورة المائدة.

وقد عرض السيد الباحث لهذه المواضع في بحث استدلالي بروح سمحة تبسيطية مبتعداً عن المساجلات الفقهية والآراء الغريبة وبما اتفق عليه كل فقهاء المسلمين ومن دون ادنى خلاف بوصف العبارة مما يتفق والفطرة التي فطر الله -سحانه- عليها الانسان، وبما يعزز وحدة الرأي عند المذاهب الاسلامية في الأمور الفقهية التي وردت فيها نصوص صريحة من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

تمهيد:

جاءت الدعوة الإسلامية وَالدُّنيا كاسِفَةُ النّورِ ظاهِرَةُ الغُرور، وكانت البشرية غارقةً في الظلام والشرور؛ فجاء الوحي الإلهي وشعاره: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، إنها مهمة الإسلام أن يخرج البشرية من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات الجَوْر إلى نور العدل، ومن نار العداوة إلى نور المحبة.

لقد كانت دعوة الإسلام دعوة إلى النور؛ أي أنها دعوة إلى العلم، وإلى الإنصاف، وإلى المحبة، وإلى الوحدة، وإلى العدالة، وهذه كلها أنوار في حياة المجتمعات البشرية.

والدنيا هي مزرعة الآخرة؛ فمن عاش فيها سويّاً مكتملَ الإيمان ملتزماً بأحكام الإسلام؛ سعد في الدارين، ومن عاش فيها على هواه يجري وراء شهواته ونزواته شقي ولم ينل منها إلا ما كتب الله له؛ تأمل هذه النهاية: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٞ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[سورة هود: ١٠٥ -١٠٨].

الشيء اللافت للنظر في صياغة هذه العبارة أن لفظ «شَقُوا» في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبني للمعلوم، ولفظ «سُعدوا» ورد بصيغة المبني للمجهول، ولعلّ في هذا الاختلاف في التعبير إشارة لطيفة ودقيقة ينبغي الالتفات لها، وهي أنّ الإنسان يطوي طريق الشقاء رغبة منه بخُطاه، ولكن لا بُدَّ لطيّ طريق السعادة من الإمداد والعون الإلهي، وإلا فإنه لا يُوفَّق في مسيره.

**أو على حد قول القائل:**

**اذا لم يكنْ عَونٌ من الله للفتَى**

**فأوّلُ ما يَجْني عليه اجتهادُهُ**

وقد حملت الدعوة الإسلامية في طيّاتها التخفيف والرفق واللين لأتباعها ومعتنقيها من أهل الإسلام، وفرضت عليهم من الأحكام ما يضمن لهم حياة طيبة؛ قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[سورة النحل: ٩٧].

فمن الأصول التي بُنِيَتْ عليها الشريعة الإسلامية رفع الحرج عن المكلفين؛ فالشارع لم يكلف عباده بالشاق ولم يعنتهم في التكليف ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾[سورة البقرة: ٢٢٠].

فهذه الآية وما سبقها من آيات تدل على أن الله نفى الحرج عن الدين، ولم يُرد الله ليجعل على عباده من حرج، وأنه يريد اليسر بعباده، ويريد أن يخفف عنهم، ولا يكلفهم إلا ما في وسعهم. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[سورة النساء: ٢٦ -٢٨].

وقد تضمنت الآيات أن جميع ما كلفهم به أمرًا أو نهيًا فهم مطيقون له قادرون عليه، وأن الله لم يكلفهم ما لا يطيقون، وأنهم في سعة ومنحة من تكاليفه، لا في ضيق وحرج ومشقة؛ فإن الوسع يقتضي أن ما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج؛ لأن الله عز وجل لم يشرع حكمًا إلا وأوسع الطريق إليه، ويسره حتى لم يبق من دونه حرج ولا عسر؛ وفي الأحاديث النبوية ما يؤكد هذا المعنى فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا. متفق عليه".

وجه الدلالة من الأحاديث: في هذه الأحاديث بيان أن دين الله يُسر، وأن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، وأن النبي ﷺ إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا، والحرج يناقض اليسر، ويناقض الحنيفية السمحة، فإذا كان مناقضًا لهما فهو مناقض للدين، ومناقض لما يحبه الله، والله لا يأمر به، والنبي ﷺ لا يختاره، وهو من أبعد الناس عنه، وكل أوامره يراعي فيها التوسيع على الأمة،

وعدم المشقة، لا يحب لهم المشقة أبدًا، ويحب لهم دائمًا التيسير عليهم، ولذلك جاءت شريعته سمحة سهلة.

ومما يؤكد أن هذه الشريعة جاءت برفع الحرج عن أتباعها؛ عند التأمل في القواعد الخمس الكبرى التي عليها مدار الفقه الإسلامي نجد أنها كلها تندرج تحت أصل رفع الحرج؛ فلا عمل من دون نية، ولو لم يتم اعتبار هذه النية لوقع الناس في حرج، فإعمال قاعدة «الأمور بمقاصدها» يرفع ذلك الحرج، وفي إعمال قاعدة «اليقين لا يزول بالشك» ثبات لحياة الناس بثبات اليقين، ولو زال اليقين بالشك لما استقرت حياتهم، ولوقعوا في حرج؛ لعدم ثبات الشكوك، وكثرتها، وكذلك في إعمال قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» حماية لحياة الناس من الضرر الذي يوقعهم في الحرج، إذن فرفع الحرج «من أعظم مقاصد التشريع؛ فقد جاءت الآيات القرآنية الدالة على رفع الحرج، والتيسير، والتخفيف، ونفي التكليف بما ليس في الوسع؛ كقول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾[سورة الحج: ٧٨].

إنه التكليف الإلهي المحفوف برحمة الله تعالى؛ وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وأحكامه وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته، ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة وحاجاتها، وإطلاق هذه الطاقة بقدراتها، والاتجاه بها إلى البناء والتعمير والاستعلاء؛ فلا تبقى حبيسة القِدْر كالبخار المكتوم، ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغاشم لا يدري ماذا يفعل!.

وهنا يتلألأ الإيمان في قلوب الصحابة فيسألون ويستفسرون عما أُحل لهم كما جاء في صدر سورة المائدة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [سورة المائدة: ٤].

إن هذا السؤال: يسألونك ماذا أحل لهم؟. من الذين آمنوا؛ يصور الحالة النفسية لتلك الجماعة المختارة، التي سعدت بخطاب الله تعالى لها أول مرة، ويشي بما خالج تلك النفوس من التحرج

والتوقي من كل ما كان في الجاهلية؛ خشية أن يكون الإسلام قد حرمه، وبالحاجة إلى السؤال عن كل شيء للتثبت من أن المنهج الجديد يرتضيه ربّ العالمين ويقره ومن ثمّ يأتي الجواب واضحاً؛ قل: أحل لكم الطيبات... وهو جواب يستحق التأمل؛ إنه يلقي في حسهم هذه الحقيقة: إنهم لم يحرموا طيبا، ولم يمنعوا عن طيب؛ وإن كل الطيبات لهم حلال، فلم يحرّم عليهم إلا الخبائث؛ والواقع أن كل ما حرمه الله هو ما تستقذره الفطرة السليمة من الناحية الحسية. كالميتة والدم ولحم الخنزير والزنا والفواحش والقتل وغير ذلك مما ينفر منه القلب المؤمن كالذي أهل لغير الله به أو ما ذبح على النصب، أو كان الاستقسام فيه بالأزلام؛ وهو نوع من الميسر، وتأمل معي هذا الحوار، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أرأيت أشياء، كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صدقة، أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟. فقال النبيﷺ: (أسلمت على ما سلف من خير). [ش أخرجه مسلم في الإيمان، باب: بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، رقم: ١٢٣.

فعبارة (على ما سلف) تعني: ما سبق منك من فعال حميدة مسجلة في صحيفة أعمالك وثابت لك أجرها عند من لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء؛ ويؤكد هذا المعنى ما جاء عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهّ قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللهّﷺ: يَا رَسُولَ اللهّ!. أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيّةِ؟. قَالَ: "أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الإِسْلاَمِ فَلاَ يُؤَاخَذُ بِهَا. وَمَنْ أَسَاءَ أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَالإِسْلاَمِ". (صحيح البخاري: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم وصحيح مسلم: كتاب الإيمان).

والناظر في تاريخ هذه الفترة يلمس ذلك التغيير العميق الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية؛ لقد هزها هزًا عنيفًا نفض عنها كل رواسب الجاهلية، لقد أشعر المسلمين –الذين التقطهم من سفح الجاهلية ليرتفع بهم إلى القمة السامقة– أنهم يولدون من جديد، وينشأون من جديد. كما جعلهم يحسون إحساسًا عميقًا بضخامة النقلة، وعظمة الوثبة، وجلال المرتقى، وجزالة النعمة. فأصبح همهم أن

يتكيفوا وفق هذا المنهج الرباني الذي لمسوا بركته عليهم، وأن يحذروا عن مخالفته، وكان التحرج والتوجس من كل ما ألفوه في الجاهلية هو ثمرة هذا الشعور العميق، وثمرة تلك الهزة العنيفة.

وبعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء نأتي لمفهوم (إلا ما قد سلف) حيث رفع سبحانه الحرج عن الأمة الإسلامية في مواطن عديدة وكثيرة.

فماذا يفعل الناس إذ جاءهم التكليف وهم واقعون في بعض المخالفات الشرعية أو أنهم قد ارتكبوا بعضها ولا يمكن إصلاحها.

ومن هنا يأتي التكليف الإلهي برفع الحرج عما قد سلف من تصرفات كانت تليق بالجاهلية لكنها لا تليق بالإسلام ولا تتفق مع طهارته وصفائه ونقائه.

## معنى ومفهوم (سلف):

**أولا:** ما معنى سلف في اللغة؟.

السلف: يعني كلّ من تقدّم من الآباء وذوي القرابة في السنِّ أو الفضل، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[سورة الزخرف: ٥٦].

وفي البقرة/ ٢٧٥يقول تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والسَّلَف الصَّالح: الآباء والأجداد المحترمون.

السَّلَف والخلف: أهل الإنسان الذين ينحدر منهم وذرِّيته التي تنحدر منه.

ومذاهب السَّلَف: مذاهب المتقدِّمين.

كلّ من شغل منصبًا قبل من يشغله حاليًّا يقال له: خيرُ خلف لخير سَلَف.

قال ابن منظور: «والسلف والسليف والسلفة: الجماعة المتقدمون.

والسَّلَفُ: جمعُ سالِفٍ.

وسلف الشّيء تقدّم وسبَق أي مضى وانقضى.

وسلَف له عملٌ صالح -كان ذلك في سالف الدهر -{عَفَا اللهُ عَما سَلَفَ}.

وقال ﷺ لحكيم بن حزام: [أسلمت على ما أسلفت من الخير]. سبق تخريجه.

**ثانياً:** مفهوم إلا ما قد سلف في القرآن المجيد!.

ونحن نتحدث عن مفهوم (إلا ما سلف) نجد أن:

هذه المادة (س ل ف) وردت في القرآن المجيد كما جاء في المعجم المفهرس (٨) مرات في (٧) سور من سور القرآن.

هي كالتالي:

وردت في سورة البقرة في الآية (٢٥٧).

وفي سورة النساء في الآية (٢٢) وفي الآية (٢٣).

وفي سورة المائدة في الآية (٩٥).

وفي الأنفال في الآية (٣٨).

وفي سورة يونس في الآية (٣٠).

وفي سورة الحاقة في الآية (٢٤).

وفي سورة الزخرف في الآية (٥٦).

في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ سورة البقرة.

وفي سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سورة النساء.

وفي سورة المائدة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ سورة المائدة.

وفي سورة يونس في قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ سورة يونس.

وفي سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال.

وفي سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ سورة الزخرف.

وفي سورة الحاقة في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ سورة الحاقة "بما أسلفتم" قدمتم من الأعمال الصالحة. "في الأيام الخالية" أي في الدنيا.

والذي يعنينا هنا هو الحديث عن قول الله تعالى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقد ورد ذلك في القرآن المجيد في أربعة مواطن.

**الموطن الأول**: في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥].

**الموطن الثاني**: في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٢٢].

**والثالث**: في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٣].

**الموطن الرابع**: ورد في المائدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

ومثل ذلك ورد في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

**بيان ما قد سبق:**

**الموطن الأول:** جاءت في سورة البقرة أثناء الحديث عن الربا وأثره السيئ على البشرية فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] (فله ما سلف) أي ليس عليه ردّ ما أخذ من ربا قبل التحريم، أما الآن: وبعد ثبوت التحريم، فيجب عليه رد ما أخذه من زيادة لمن أخذه منه أو لورثته، وإن كان لا يعلمه، كمن يتعامل مع المصارف، فعليه أن يتصدق به في وجوه الخير ومصالح المسلمين، ولا يأكله لأنه كسب خبيث.

ومن رحمته سبحانه أن جعل سريان نظامه يبدأ مع ابتداء تشريعه؛ فمن سمع حكم ربه فاستجاب وانتهى عما هو واقع فيه فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله عز وجل يحكم فيه بما يراه. . وهذا التعبيرله أهمته في تربية القلوب على منهج الله تعالى؛ فهو يوحي للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله ورحمته؛ فيظل المرأ متوجساً خيفةً من الأمر حتى يقول لنفسه: كفاني هذا الرصيد من العمل السيىء، ولعل الله أن يعفو عني إذا أنا انتهيت وتبت، فلا أضف إليه جديدا بعد !.. وهكذا يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد. ومن ثم يأتي قوله سبحانه: ﴿ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا التهديد –بحقيقة العذاب في الآخرة–يؤكد ملامح المنهج التربوي الذي ربَّى القرآن المجيد أتباعه عليه.

**الموطن الثاني:** جاء في سورة النساء عند الحديث عن المحارم فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: ٢٢] (ما قد سلف) أي في الجاهلية، فلا مؤاخذة عليه مع وجوب التفريق، وقد كان أكبر ولد الرجل يَخلُف على امرأة أبيه، وكان الرجل يَجمع بين

الأختَين، فنَهى -عزّ وجلّ -أن يكون منهم أحدٌ يجمع في عمره بين أختَين، أو ينكح ما نكح أبوه، إلا ما قد سلف في الجاهلية قبل عِلمهم بتحريمه.

قد ذُكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يَخلفون على حلائل آبائهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فحرم الله -تبارك وتعالى -عليهم المقام عليهنَّ، وعفا لهم عما كان سلف منهم في جاهليتهم وشِركهم مِن فعل ذلك، لم يؤاخذهم به، إن هم اتقوا الله في إسلامهم وأطاعوه فيه (تفسير الطبري) "جامع البيان" تحقيق شاكر (٨: ١٣٢).

قال ابن أبي حاتم: عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار، قال: توفي أبو قيس، وكان من صالح الأنصار، فخطب ابنُه قيس امرأتَه، فقالت: إنما أعدُّك ولدًا، وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله ﷺ فأستأمِره، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفي، فقال خيرًا، إن ابنه قيس خطبني وهو من صالحي قومه، وإنما كنتُ أعدُّه ولدًا، فما ترى؟. قال لها: ((ارجعي إلى بيتك)).

قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾(تفسير ابن أبي حاتم)، (٣: ٩٠٩).

والمعنى: لا تعقدوا النكاح على من عقد عليها النكاح آباؤكم من الأب أب الصلب أو الأجداد الذين فوقه سواء كانوا من قبل الأم أو من قبل الأب فلا يجوز للرجل أن يتزوج مَنْ عقد عليها أبوه أو جده سواء كان جده من قبل الأب أو من قبل الأم وقوله تعالى﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ يعني لكن ما قد سلف في الجاهلية من هذا الفعل فإنه معفو عنه.

وهذا استثناء منقطع، أي لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه.

وقيل: «إلا» بمعنى بعد، أي بعد ما سلف؛ كما قال تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[سورة الدخان: ٥٦] أي بعد الموتة الأولى.

وقيل: «إلا ما قد سلف» أي ولا ما سلف؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾[سورة النساء: ٩٢] يعني ولا خطأ.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير، معناه: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا إلا ما قد سلف.

وقيل: في الآية إضمار لقوله «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف. (الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي) فالاستثناء عن الإثم لا عن جواز الفعل.

وخلاصة هذا الموضوع أن امرأة الأب في مكان الأم، فلا يتصور أن يخلف الابن أباه؛ فيصبح في خياله ندا له، وغالباً ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعا، فيكره أباه ويمقته!. وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء؛ ومن ثم جعل الإسلام هذا العمل شنيعا غاية الشناعة، جعله فاحشة، وجعله مقتا: أي بغضا وكراهية، وجعله سبيلا سيئا إلا ما كان قد سلف منه في الجاهلية، قبل أن يرد في الإسلام تحريمه. فهو معفو عنه متروك أمره لله سبحانه.

**الموطن الثالث:** وجاء في الآية التي تليها ذكر السلف مرة أخرى في موضوع الجمع بين الأختين، قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ومعناه أن الله حرم المسلمين أن يجمع أحدهم بين الأختين من نسب أو رضاع (إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) يعني لكن ما قد سلف لكم في الجاهلية فلا حرج عليكم فيه، والجمع بين الأختين محرم.

**وقد يكون الجمع على صورتين:**

**الأولى:** أن يتزوجهما في عقد واحد؛ بأن قال أبوهما: زوجتك ابنتيَّ. فكلا العقدين باطل.

**الثانية:** أن يسبق أحدهما الآخر فالعقد السابق هو الصحيح والثني باطل؛ فلو زوج الولي ابنته رجلا في أول النهار ثم زَوَّجَهُ أختها في آخر النهار مع بقاء الأولى فنكاح الثانية باطل.

وكذلك لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها فهؤلاء ثلاث لا يجمع بينهن الأختان والعمة وبنت أخيها والخالة وبنت أختها، وما عدا ذلك من الأقارب فإنه يجوز الجمع بينهن؛ فيجوز الجمع بين ابنتي العم وبين ابنتي الخالة، لكن لا ينبغي

أن يجمع بين القريبات لان ذلك قد يفضي إلى قطيعة الرحم بينهما؛ إذ إن المعروف عادة أن الضرة تغار من ضرتها ويحصل بينهما عداوة وبغضاء.

فعن ابن شهاب: أن عروة عن الزبير أخبره: أن زينب بنت أبي سلمة أخبرته: أن أم حبيبة قالت: قلت: يا رسول الله، انكحْ أختي بنت أبي سفيان، قال: (وتحبين). قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبيﷺ: (إن ذلك لا يحل لي). قلت: يا رسول الله، فوالله إنا لنتحدث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: (بنت أم سلمة؟). فقلت: نعم، قال: (فوالله لو لم تكن في حجري ما حلت لي، أنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن). (صحيح البخاري كتاب النكاح وصحيح مسلم كتاب الرضاع).

وهنا ينبغي الإشارة إلى أن هذه المحرمات كانت محرمة في عرف الجاهلية- فيما عدا حالتين اثنتين: ما نكح الآباء من النساء، والجمع بين الأختين، فقد كانتا جائزتين -على كراهة من المجتمع الجاهلي ولكن الإسلام -وهو يحرم هذه المحارم كلها -لم يستند إلى عرف الجاهلية في تحريمها؛ إنما حرمها ابتداء مستندا إلى سلطانه الخاص. ومن ثم جاء النص بهذا الوضوح حماية للأسرة المسلمة.

**الموطن الرابع**: جاءت في سورة المائدة عند الحديث عن آداب الإحرام وما ينبغي على المحرم أن يلتزم به أثنا تأدية فريضة الحج أو العمرة فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾.

ومعنى (سلف) هنا: أي من قتل الصيد قبل تحريمه؛ فالنهيُ منصبٌ على قتل المحرم للصيد عمدًا، فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة، فإذا كان القتل عمدًا فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله؛ وينص السياق القرآني على حكمة هذه الكفارة؛

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾.

ففي الكفـارة معنى العقوبة، لأن الذنب هنا مخلٌ بحرمة المكان والزمان؛ لذا يشدد فيها الإسلام تشديدًا كبيرًا؛ لذلك يعقب عليها بالعفو عما سلف والتهديد بانتقام الله ممن لا يكف ولا ينزجر ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ فإذا اعتز قاتل الصيد بقوته وقدرته على نيل هذا الصيد الذي أراد الله له الأمان في مثابة الأمان فالله هو العزيز القوي القادر على الانتقام!.

جاءت هذه المرة في أثناء الحديث عن الكفر والكفار مبينًا أن الفرصة ما زالت أمامهم سانحة لترك ظلمات الكفر والدخول في نور الإيمان؛ فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال.

وهنا يتجه القرآن المجيد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينذر الكافرين إنذاره الأخير؛ وهو إنذار يفتح لهم باب الأمل بالتجاوز عما سلف؛ قل للذين كفروا -في ضوء ما سبق من قرار الخالق الجبار عن خيبتهم في جمعهم، وحسرتهم على ما أنفقوا، وصيرورتهم بعد الخزي والحسرة في الدنيا إلى أن يراكم الخبيث منهم على الخبيث فيجعل الخبيث كله في جهنم..

فالفرصة أمامهم سانحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر، ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله، ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله. . والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف.

فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، ويدخله الإنسان بريئاً من كل ما كان قبله كما ولدته أمه. . فأما إن هم عادوا -بعد هذا البيان -إلى ما هم فيه من الكفر والعدوان فإن سنة الله في الأولين لا تتخلف. ولقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين، وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين.. وهذه السنة ماضية لا تتخلف.. وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق!.

**وفي الختام أقول:**

إن نظرية الإسلام في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية، ولا

يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة الدنيا؛ إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم؛ في نكاح، ولا في طعام، ولا في شراب، ولا في لباس، ولا في عمل، ولا في عقد، إلا أن يستمد سلطانه من الله؛ حسب شريعة الله.

إن هـذا الـديـن يـقـرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده، لأنهما أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله، فالله -وحده- هو الذي يحل للناس ما يحل، ويحرم على الناس ما يحـرم، وليس لأحـد غـيره أن يشرع في هذا وذاك، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق، لأن هذا مرادف تماما لدعوى الألوهية!.

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ!.

وبهذا ينتشل الإسلام أتباعة من الدرك الهابط ومن الجاهلية إلى تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالي الكريم اللائق بكرامة بني آدم؛ الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين.